قصيدة الرثاء عند جرير
دراسة تداولية

د٠ عادل بن على بن معيض الغامدي (*)

المقدمة :

يختزل الرثاء أحزان الشاعر العربي ؛ ففيه تجد خطابات الوجع والبوح والتأبين، وهذا ما جعل ديوان الرثاء يكبر ويتمدد في مساحات الشعر العربي، غير أن الملاحظ مع كثرة القصائد الرثائية واختلاف عصورها ومراحلها ثبات الخطاب الرثائي ورسوخ تقاليده ؛ ففي القصيدة الرثائية نجد الموضوعات نفسها، وكأن حزن الإنسان وخطاباته لا تعرف ترف التطور والتغيير، أو أن الحزن يفصح عن جوهر إنساني لا يتغير كثيرا رغم تغير الإنسان نفسه.

وقد اختارت هذه الدراسة رثاء علم من أعلام الشعر القديم وأحد أعمدة المدرسة الأموية في الشعر، جرير بن عطية الخطفى المولود سنة ٣٠هـ والمتوفى سنة ١١٤هـ (١)، وهو صاحب المدائح المعروفة والنقائض الشهيرة، لقد بكى جرير في قصائد رثائية حزينة ؛ فرثى الخلفاء والقادة ورثى أصدقاءه وزوجه خالدة وابنه سوادة وحتى عدوه اللدود الفرزدق، وجاءت مراثيه غنية بكثير من المعاني والصور والدلالات، وكانت المقاربة لهذه المدونة وفق المنهج التداولي الغني بأدواته الإجرائية، وقد اخترت ثلاثة مسارات ضمن النظريات التداولية المختلفة؛ فكان المبحث الأول حديثا عن الأفعال الكلامية حسب نظرية أفعال الكلام العامة لكشف المقاصد خلف الأقوال الرثائية، وجاء المبحث الثاني فحصا للتقنيات الحجاجية حسب مدرسة بيرلمان وتيتكاه، وأتى المبحث الأخير لقراءة المدونة حسب الإشاريات المقامية .

(*) الأستاذ المساعد بقسم الأدب بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

(١) انظر نسبه وأخباره في : الأصفهاني، الأغاني، تحقيق : إحسان عباس وآخرين، دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٨م، ٨ / ٥ .

المبحث الأول

الأفعال الكلامية

يتفق النقاد على أن قصيدة الرثاء لا تخرج عادة عن ثلاثة موضوعات هي: الندب والتأبين والعزاء[١]. أما الندب فهو البكاء على الميت[٢]، وهو استدعاء لمعاني البكاء والأنين ودواعيهما ووظيفته استمرار الدمع، قال النووي: " الندب أن تعدّ شمائل الميت وأياديه، فيقال : واكريماه ... "[٣] . والتأبين مدح الرجل بعد موته[٤]، وقد يشترك الندب والتأبين في ذكر محاسن الميت لكن الأول يأخذ شكل البكاء ويقترب من النواح بينما الآخر يكون ثناء خالصا[٥]. والعزاء الدعوة إلى التصبّر والمواساة[٦]، ولعل هذا التقسيم بتدرج حال الإنسان المحزون المكلوم أمام مصيبة الفقد، فشعره في بدايته بكاء وندبا ثم يتحول إلى الثناء الخالص وقد هدأت عاطفته، ثم يختم بالعزاء والتسلّي عن هذه المصيبة والدعاء للميت بالرحمة وقد غلب عقله على حزنه.

وفي رثائيات جرير أمشاج من هذه الموضوعات على أن أكثرها حضورا الندب والبكاء، وهو يكثر في رثائه العاطفي الذي يتصل برثاء أبنائه وزوجته وأصدقائه بينما يكثر التأبين في رثائه السياسي المتصل برثاء الخلفاء والقادة، أما التعزية فهي حاضرة دائما في خواتيم قصائده ومقطوعاته الرثائية، وفيها تظهر

---

(١) انظر: شوقي ضيف، الرثاء، دار المعارف، القاهرة، ط٤، دت، ٥ .

(٢) انظر: ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م، ١٤ / ٨٧ .

(٣) النووي، تحرير ألفاظ التنبيه، تحقيق : عبد الغني الدقر، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٠٠ .

(٤) ابن منظور، ١ / ٥٢.

(٥) انظر: شوقي ضيف، ٦ .

(٦) انظر: ابن منظور ، ٩٢ .

أبيات الحكمة وأبيات الدعاء للميت بالرحمة ولقبره بالسقيا، فما هي المقاصد التي يقصدها المتكلم . إن أهم نظرية ظهرت في مقاربة المقاصد هي نظرية (أفعال الكلام العامة) وجهازها المفاهيمي، وهي نظرية بدأت في تأطير حدودها مع محاضرات الفيلسوف الإنجليزي (أوستين) صاحب التصور المؤسس لهذه النظرية، وجاء بعده تلميذه (سيرل) الذي جوّد كثيرا من مقترحاته وأعاد صياغة كثيرا من قوانينه، وأهم الفرضيات التي استقرت عليها هذه النظرية ؛ مفهوم الفعل الكلامي (Speech act) وهو نواة مركزية لكثير من المقاربات التداولية(١)، ويتأسس على أن كل ملفوظ " يعدّ نشاطا ماديا نحويا يتوسّل أفعالا قولية ؛ لتحقيق أغراض إنجازية وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول، ومن ثم فهو يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا "(٢).

وفرضية التقسيم الثلاثي للفعل الكلامي ؛ إذ إن كل قول يصدر من متكلم يضمر ثلاثة أفعال : العمل القولي والعمل المضمّن في القول والعمل التأثيري الذي يحدث استجابة لدى المخاطب(٣).

ومن العمل الثاني (العمل المضمّن في القول) ظهرت إصنافية أوستين للأعمال القولية، فقد قسمها إلى خمسة أقسام، ثم أعاد صياغتها سيرل وأضاف مجموعة من المحددات لتأطّر مفهومها، وهي:

---

(١) انظر : مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥، ٤٠ . و شكري المبخوت، نظرية الأعمال اللغوية، مسكلياني للنشر، تونس، ط١، ٢٠٠٨م، ١٣ .

(٢) مسعود صحراوي ٤٠ .

(٣) انظر : شكري المبخوت، ٩، وما بعدها . طالب الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، مطبوعات جامعة الكويت، ط١، ١٩٩٤م، ٣، وما بعدها .

١- الإخباريـات (Assertives) . ٢- التوجيهيـات (Directives) .
٣- الوعـديات (Commissives) . ٤- الإفـصاحيات (Expressives).
٥- الإيقاعيات (Declaratives)[١].

وإذا حاولنا فحص القصائد الرثائية بهذا الجهاز التصنيفي بحثا عن مقاصد خلف هذه الأقوال الشعرية وجدنا أن قصائد جرير الرثائية تتوزع بين الندب والتأبين والتعزية، وتحت كل صنف من هذه الأصناف نقرأ معاني مختلفة، وإذا حاولنا فحص هذه المعاني بحثا عن الأفعال المضمنة فيها فسنجد المعاني الآتية:

١- **إعلان النعي** : ونجده في مقدمات قصائده وهو ينهض بوظيفة إعلان الغرض الخطابي وتحديد هويته، يقول جرير في رثاء عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك :

نعوا عبد العزيز فقلت هذا جليـل الـرزء والحـدث الكبيـر[٢]

وقال يرثي الخليفة عمر بن عبد العزيز :

تنعي النعاة أمير المؤمنين لنا يا خير من حج بيت الله واعتمرا[٣]

وقال في إعلان وفاة غريمه الفرزدق :

لعمري لقد أشجى تميما وهدّها على نكبات الدهر موت الفرزدق[٤]

فماهي الأفعال الكلامية خلف هذه الأقوال ؟

لا ريب أن المقاصد الظاهرة والمباشرة هي البوح بالحزن، وهو فعل من البوحيات أو (الإفصاحيات) التي تعني : " التعبير عن حالة نفسية معينة في

---

(١) انظر : شكري المبخوت ٩٣-٩٤ .

(٢) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق : نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ٦٩٤ .

(٣) ديوان جرير، ٧٣٦ .

(٤) ديوان جرير، ٩٣٨ .

شرط الصدق بإزاء حالة الأشياء التي يحددها المحتوى القضوي ومنها : أشكر وأهنئ وأعتذر وأشجب "[١]، فكأنه يقول : أنا بهذا القول أبوح بحزني على هذا المصاب الجلل، لكن فحص القرائن والمعلنات المقامية يقودنا إلى أفعال أخرى تنجز خلف هذه الأقوال ؛ فقد تكون إخبارا من قبيل : أنا بهذا القول أخبر عن وفاة المتوفي، وحتى يكون إخبارا لابد أن يكون المخاطب بهذا القول جاهلا أو غافلا عن هذه المعلومة ومهتما بها، ويشترط فيها أيضا أن يلتزم المتكلم ويتعهّد " بوجود حالة الأشياء في الكون وبصدق المحتوى القضوي "[٢]، فقد يقصد بهذا النعي أن يبلّغ الغافل عن هذا الخبر أو يخاطب نفسه غير المصدقة بفداحة هذه المصيبة أو يقرر عظم الوقيعة وفداحة الخطب، وكأنه يقول أنا بهذا القول أقرر عظم هذه الخسارة بموت الفقيد .

وإذا استصحبنا مقام قصيدة الرثاء وتقاليد إنشاء القول في مؤسسة هذا الخطاب فإن ذلك قد يشدّنا نحو فعل مقصدي آخر، أعني بذلك الفعل الإيقاعي تحديدا، والإيقاعيات تعني " إيجاد حالة من حالات الأشياء في الكون بمجرد إنجاز عمل لغوي إيقاعي ناجح "[٣]، فهو هنا يعلن أنه يقوم بالنعي بمجرد تلفظه بهذا القول أو بواجب العزاء، فكأن الفعل المضمّن خلف هذه الأقوال هو : أنا بهذا القول أعزّيكم في وفاة فقيدكم، أو أنا بهذا القول أنعي الفقيد رحمه الله، فالنعي والعزاء عملان اجتماعيان لا يتحققان إلا بالتلفظ بأقوالهما ؛ مثل الاعتذار أو تغيير شيء في الواقع بمجرد التلفظ به .

٢- **البكاء على الميت** : وهو من أهم معاني الندب وأكثرها حضورا في قصائد الرثاء، بل إنه وظيفة أساسية في خطاب الرثاء، إذ به يفرّغ المحزون طاقته

---

(١) شكري المبخوت، ٩٣ .

(٢) شكري المبخوت، ٩٢ .

(٣) شكري المبخوت، ٩٤ .

الحزينة ويتطهر من أحزانه ويخفف وطأة المصيبة عليه، وكلما قربت مكانة المتوفى من الشاعر الراثي كثرت مواطن البكاء عليه في القصيدة، وهذا ما وجدناه في رثاء جرير، فقد تكاثرت مواطن البكاء في رثاء أبنائه وزوجه مقارنة برثاء غيرهم، واقرأ قوله في رثاء ابنه سوادة :

قد كنت أعرفه مني إذا غلقت رهن الجياد ومدّ الغاية الغالي
إلا تكن لك بالديرين باكية فربّ باكية بالرمل معوالِ
ترتاع ما نسيت حتى إذا ذكرت ردّت هماهم حرّى الجوف مثكالِ
زدنا على وجدها وجدا وإن رجعت في القلب منها خطوب ذات بلبالِ[1]

ويقول في زوجه خالدة :

يا نظرة لك يوم هاجت عبرة من أم حزرة بالنميرة دارُ
تحيي الروامس ربعها فتجدّه بعد البلى وتميته الأمطارُ[2]

وهو يبكي أيضا أصدقاءه في قوالب رثائية مكرورة في هذا الخطاب من مثل قوله في عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك :

بكى أهل العراق وأهل نجد على عبد العزيز ومن يغورُ
وأهل الشام قد وجدوا عليه فأحزنهم وُزْلزِلَتِ القصورُ[3]

ويقول في رثاء شريك بن الحميرية أحد بني كليب :

ستبكي تميم ما تغلغل راكب أبا الصلت زين الركب سمّ الفوارس[4]

وقال في رثاء الخليفة عمر بن عبد العزيز :

فالشمس كاسفة ليست بطالعة تبكي عليك نجومَ الليل والقمرا[5]

---

(١) ديوان جرير، ٥٨٤.
(٢) ديوان جرير، ٨٦٤ .
(٣) ديوان جرير، ٦٩٤ .
(٤) ديوان جرير، ٧٣٢.
(٥)ديوان جرير، ٧٣٦.

وقال يرثي المرار بن عبد الرحمن بن أبي بكرة :

وأقول من جزع وقد فتنا به ودموع عيني في الرداء غزارُ

للدافنين أخا المكارم والندى لله ما ضمنت به الأحجار[١]

وقال في رثاء الفرزدق :

بكيناك حدثان الفراق وإنما بكيناك إذ نابت أمور العظائمِ[٢]

وخلف هذه الأقوال أفعال إنجازية ينجزها المتكلم، فالقرائن المقامية تقودنا إلى فعل الأمر من الأمريات أو (التوجيهيات) التي " تمثّل سعي المتكلم لجعل المخاطب يفعل شيئا ما، وهذا السعي تختلف درجاته بين مجرد الطلب والاقتراح أو الالتماس أو الأمر أو الإلحاح في السؤال "[٣]. فهو يأمر نفسه ويأمر غيره بالبكاء تخليدا لذكرى الفقيد، يقول في رثاء الوليد بن عبد الملك :

يا عين جودي بدمع هاجه الذكرُ فما لدمعك بعد اليوم مدّخرُ[٤]

وكأنه يقول : أنا بهذا القول آمر نفسي بالبكاء، أو آمر غيري كما في الأمثلة السابقة . كما نستطيع أن نستظهر فعلا إنجازيا آخر يتمثل في الإخبار من الإخباريات كما في مثال سابق " يا نظرة لك يوم هاجت عبرة "؛ إذ إن الفعل الإنجازي المفهوم هنا هو : أنا بهذا القول أخبر ببكائي ذلك اليوم. أو كما في قوله: " أقول من جزع وقد فتنا به .. . ودموع عيني "، وكما في أمثلة أخرى سبق ذكرها، فهو يخبر عن حاله الحزينة أو يخبر بمكانة الفقيد الكبيرة التي جعلت مدنا كبيرة تبكي عليه، يقول في رثاء عبدالعزيز بن الوليد بن عبد الملك :

بكى أهل العراق وأهل نجد على عبد العزيز ومن يغور[٥]

---

(١) ديوان جرير، ٧١٩.
(٢) ديوان جرير، ٩٧٦ .
(٣) شكري المبخوت، ٩٢ .
(٤) ديوان جرير، ٢٤٢.
(٥) ديوان جرير، ٦٩٤ .

وكأنه يقول أنا بهذا القول أخبر بعظم مكانة الفقيد في قلوب أصدقائه ومحبيه، ومثل ذلك في قوله: "ستبكي تميم ما تغلغل راكب ... "[1] فهو يخبر بمكانة الفقيد إلى درجة أن قبيلته تميم تبكي عليه، وهي لا تبكى إلا على سيد أو شريف في مكانته .

لكننا أيضا لا نستطيع استبعاد الأفعال البوحية ؛ فهي تظهر في أغلب أقوال الرثاء وتتداخل في جميع مقاصده، ففي جميع الأمثلة السابقة المتعلقة ببكاء الميت، يظهر لنا مقصد بوحي يتعلق بإظهار عاطفة الحزن والأسى ووجع الفقد، فكأنه يقول خلف هذه الأبيات : أنا بهذا القول أبوح بحزني وألمي لفقد هذا الإنسان.

٣- وصف الوفاة والقبر :

وهذا أيضا من معاني الندب وهو موضوع مفضل لاستدرار الدمع وإطالة البكاء؛ فوصف مشاهد الدفن وشكل القبر موضوعات مؤلمة تذيب قلب الإنسان وتحرق فؤاده، وقد جاءت أبيات جرير لوصف مشاهد الدفن أو حمل الميت إلى قبره أو الوقوف على القبر بعد الدفن أو الدعاء للقبر بالمطر والرحمات، وهي أقوال تضمر مقاصد متشابهة لكنها تتشدّ إلى مناسبات قصائدها والظروف الحافة بكل قول، واقرأ قوله في وصف قبر الخليفة الوليد بن عبد الملك :

إن الخليفة قد وارى شمائله غبراء ملحودة في جولها زور[2]

فالخليفة المتوفى بجميع شمائله من قوة وكرم ونفوذ قد أمسى في هذه الحفرة الملحودة الغبراء، وهي حال تستدعي تأمل الإنسان وتوقظه من غفلته . والعمل المنجز خلف هذا القول هو: الإخبار بحتمية الزوال أو الإخبار بحقيقة الموت، فمهما عظم الإنسان وترقّى في مراتب القوة مثل مقام الخليفة فإن مصيره تلك

---

(١) ديوان جرير، ٧٣٢.

(٢) ديوان جرير، ٢٤٢. وأجوال البئر : نواحيها، والزور : الاعوجاج .

الحفرة الغبراء الملحودة . كما أننا نستطيع فهم مقصد بوحي مع هذه المقاصد ؛ وهو البوح بالحزن الشديد والحسرة على وفاة الخليفة .

ويقول في رثاء صديقه عقبة بن عمّار:

يا عُقْب لا عقب لي في البيت أسمعه إلا ثويــة رمــس بــين أحجــار(١)

في إلحاح على مرارة الفقد واستشعار لوجع المصيبة، فهو ينادي صديقه الذي اعتاد أن يناديه ولكن لا مجيب له اليوم إلا ذلك القبر الأصم بين الأحجار الخرساء، والفعل الإنجازي هنا بوحي، فقد يكون: أنا بهذا القول أبوح بمرارة ألم الفقد، أو قد يكون بوحا بالحزن الشديد . وقوله في موضع آخر :

وكيف الصبر إذ نظروا إليه يــرد علــى ســقائفه الحفيــر(٢)

وهو يرثي عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، وفيه يتعجب جرير ممن يطلب من أهل الفقيد الصبر والتسلّي عن المصيبة، وهم ينظرون إلى ابنهم وقد غطّي بالتراب، إن الفعل الإنجازي المفهوم خلف هذه الكلمات يتعلق بالإخبار ؛ فهو بهذا القول يخبر بصعوبة الصبر أو يخبر بعظم المصيبة التي يصعب معها الصبر .

وفي موطن آخر، يقول راثيا أحد أصدقائه :

لقد غادروا بالغيض علق مضنة ولم تر عيني مثله علق لابس(٣)

إن الفقيد ذو مكانة عالية ونفسية، والفعل الإنجازي خلف هذه الأقوال يتعلق بالإخبار بعظم مكانة الفقيد أو البوح بالأسى تجاه حال الفقيد فقد كان ذا مكانة نفسية في قلوب محبيه وهم يغادرونه الآن وقد تركوه بين الأحجار والصخور .

وفي موضع آخر يخاطب السائرين بنعش الميت بقوله :

---

(١) ديوان جرير، ٤٤٣.

(٢) ديوان جرير، ٦٩٤.

(٣) ديوان جرير، ٧٢٣.

وأقول من جزع وقد فتنا به ودموع عيني في الرداء غزير
للدافنين أخا المكارم والندى لله ما ضمنت به الأحجار[1]

لتذكيرهم بمكانة الفقيد فهو أخو المكارم والندى ويتعجب كيف تضمّ الأحجار رجلا في مكانته وكرمه ونداه، والعمل المنجز مثل الأبيات السابقة لن يخرج عن الإخبار أو البوح أو هما معا ؛ فهو يخبر عن مكانة الميت ويثني عليه وهو يبوح في الوقت عينه عن أساه وحزنه وألمه بهذا المصاب.

ويصف في مناسبة رثائية أخرى وفاة الفرزدق وكيف ساروا بنعشه، يقول:

عشية راحوا للفراق بنعشه إلى جدث في هوة الأرض معمق
لقد غادروا في اللحد من كان ينتمي إلى كل نجم في السماء محلق[2]

والشاعر يلّح على ثنائية العلو في الحياة والقبر حال الممات فيستخلص منها العظة والعبرة، فالميت كان نجما في السماء ليتحول إلى جدث في هوة الأرض وهي مقابلة في الجهات تضمر كثيرا من المعاني، والمقصد الإنجازي المفهوم من هذه الأقوال: الإخبار بفضل الفقيد وعلو منزلته، والبوح أيضا بألم الفقد والمصيبة.

ويقول في رثاء زوجه خالدة:

ولقد نظرت وما تمتع نظرة في اللحد حيث تمكّن المحفار[3]

ويقول عنها في موضع آخر من القصيدة نفسها:

نعم القرين وكنت علق مضنة وارى بنعف بلية الأحجار[4]

والتركيز هنا على الموقف الذي يشاهد فيه الشاعر المحفار وهو يلقي التراب على قبر زوجه، وهو موقف يفجّر أنهار حزن الشاعر ويمدّه بسيل من العواطف

(١) ديوان جرير، ٧١٩.
(٢) ديوان جرير، ٩٣٨.
(٣) ديوان جرير، ٨٦٢.
(٤) ديوان جرير، ٨٦٢.

الجياشة تجاه شريكة حياته وأم أولاده، وهو في البيت الآخر يستشعر مكانتها في داخله وماذا خلّفت من فراغ في حياته ويراها (علق مضنة) وهو المال النفيس الذي يضنّ به لتغدو بعد ذلك جزءا من الأرض مستورا بأحجار الجبل، إن الفعل البوحي هنا يظهر بشكل جليّ وواضح، فالمقصد البوح بالحزن الشديد والألم لفقد زوجه.

٤- تأبين الميت : نقصد بالتأبين هنا مدح الميت والثناء عليه، وهمّنا هنا الأبيات التي خلت من الندب والبكاء وكانت ثناء خالصا، وهي تمثل مساحة مهمة من القصيدة الرثائية، فصفات الثناء تتلون بلوعة الشاعر وحزنه فهي في أغلبها تصدر عن عاطفة صادقة، وهي تنشدّ إلى مقام القصيدة ومناسبتها وعلاقة الراثي بالمرثي، فمقاصد تأبين الخليفة والشخصية العامة تختلف عن مقاصد تأبين القريب والصديق، وصفات الثناء تكاد تكون متشابهة ؛ فهو يثني بالشجاعة والحزم والثبات، يقول في تأبين الخليفة عمر بن عبد العزيز :

أم من يقوم بفاروق إذا اختلفت غياطل الشك من ورد وإصدار[١]

ويقول في تأبين الصمة بن عبد الله القشيري :

فيا صمّ من للخيل تنحطّ في القنا ويا صمّ من للمديات الطوارق
وقد كان مقداما على حارة الوغى ولوجا إذا ما هيب باب السرادق
رأيت جياد الخيل بعدك عرّيت وحلّت رحال اليعملات المحانق[٢]

ويثني على المتوفى بالكرم والمروءة ومساعدة الناس، يقول :

يا عقب لا عقب لي في البيت أسمعه من للأرامل والأضياف والجار[٣]

---

(١) ديوان جرير، ٤٤٣.

(٢) ديوان جرير، ٨٠١.

(٣) ديوان جرير، ٤٤٣.

ويقول في رثاء الفرزدق :

فمن لذوي الأرحام بعد ابن غالب لجار وعان في السلاسل موثق
ومن ليتيم بعد موت ابن غالب وأم عيال ساغبين ودردق
ومن يطلق الأسرى ومن يحقن الدما يداه ويشفي صدر حرّان محنق
وكم من دم غال تحمل ثقله وكان حمولا في وفاء ومصدق
وكم حصن جبار همام وسوقة إذا ما أتى أبوابه لم تغلق[1]

ويقول في زوجه :

كانت مكرمة العشير ولم يكن يخشى غوائل أم حزرة جار[2]

ويثني بالفضل والسؤدد على المرار بن عبد الرحمن في قوله :

كان الخيار سوى أبيه وعمّه ولكل قوم سادة وخيار
لا يسلمون لدى الحوادث جارهم وهم لمن خشي الحوادث جار[3]

والفعل الكلامي المفهوم خلف هذه الأقوال لا يبتعد كثيرا عما تقدم، فهو لا يخرج عن الإخبار أو البوح أو الإيقاع، فالمقصد الأول تقود إليه قرائن مقامية نفهم منها مقصدية الإخبار وكأنه يقول : أنا بهذا القول أخبر عن فضائل المتوفى. وهذا مقصد ملتبس بمقاصد أخرى، فالإخبار في هذه المواضع يستدعي مقصدا آخر هو البوح بالحزن أو البوح بالحب، وكأنه يقول : أنا بهذه الأقوال أبوح بحزني على وفاة هذا الفاضل الكريم، وقد يكون الفعل المنجز إيقاعا ؛ فهو خلف هذه الأقوال ينجز فعل العزاء .

٥- **الشكوى** : والشكوى من الندب بل هي من أكثر معانيه، فقلما تخلو قصيدة رثائية من الشكوى، فالشاعر حين يرثي لابد أن يشكو ويطيل في شكواه؛

(١) ديوان جرير، ٩٣٨.
(٢) ديوان جرير، ٨٦٣.
(٣) ديوان جرير، ٧١٩.

ليستدرج عاطفة الحزن، وموضع الشكوى مختلف وأكثره يتصل بالضعف والحزن، وأكثر أبيات جرير في الشكوى يتصل برثاء أبنائه وزوجه إذ إن رثاءَه لهم يمر عبر الحديث عن نفسه وعن معاناته من هذا الفراق الأليم، يقول في رثاء ابنه وهو يشكو حزنه :

إلا تكن لك بالديرين باكية فـــربّ باكيـــة بالرحـــل معـــوال
ترتاع ما نسيت حتى إذا ذكرت ردّت هماهم حرى الجوف مثكال
زدنا على وجدها وجدا وإن رجعت في القلب منها خطوب ذات بلبال(١)

ثم يشكو الضعف وقلة الحيلة، يقول :

فارقتني حين كف الدهر من بصري وحـين صـرت كعظـم الرمّـة البـالي
إن الثوى بذي الزيتون فاحتسبي قد أسرع اليوم في عقلي وفي حالي(٢)

ويشكو في مرثية عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك مجافاة النوم له، يقول:

فبتنا لا نقرّ بطعم نوم ولا ليـــل نكابـــده قـــصيرُ(٣)

وتمتلئ مرثيته في زوجه خالدة بكثير من أبيات الشكوى التي تشي بحجم الفقد ومرارة الحزن، فهو يفتتح القصيدة بمطلع يختزل كثيرا من الشكوى، يقول :

لولا الحياء لهاجني استعبارُ ولـزرت قبـرك والحبيـب يـزارُ(٤)

وفي موضع آخر من القصيدة يظهر شدة حزنه وكأنه يبكي مصيبته وعظيم احتياجه، يقول :

---

(١) ديوان جرير، ٥٨٤.
(٢) ديوان جرير، ٥٨٤.
(٣) ديوان جرير، ٦٩٤.
(٤) ديوان جرير، ٨٦٤.

ولّهت قلبي إذ علتني كبرة وذوو التمائم من بنيك صغار[1]

ويظهر في موطن آخر ضعيفا أمام حزنه يشكو قلة حيلته وكثرة عذاله، يقول :

يا نظرة لك يوم هاجت عبرة من أم حزرة بالنميرة دار[2]

ويقول :

لا تكثرنّ إذا جعلت تلومني لا يذهبنّ بحلمك الإكثار[3]

ومثل هذه الأقوال الرثائية لا تخرج في مقاصدها عما ذكر سابقا، فهي تنتمي إلى أحد الفعلين الكلاميين؛ الإخبار أو البوح، فالإخبار يكون بقصد الإفصاح عن حاله وضعفه وألمه من هذا الفراق، والبوح – وهو الأقرب – يكون بقصد إظهار الحالة الشعورية وهي عملية متصلة بالإحساس نفسه، فالبوح بالحزن جزء من الإحساس به، فكأنه يبكي بكلماته ويصنع بها إحساسه، إن البوح هنا ليس إخبارا وإنما الفعل الشعوري نفسه، وهو فارق شديد الخفاء بين الفعلين .

٦- **التعزية** : التعزية هي الموضوع الثالث من موضوعات خطاب الرثاء إلى جانب التأبين والندب، وقد تقدم القول بأنها : الدعوة إلى التصبر والمواساة[4]، وهي صوت العقل الهادئ المتخفف من سطوة العاطفة وبكاء النفس، وعادة تختم بها القصائد الرثائية لتكون إعلانا للصبر والتجلد وبدء استيعاب مصيبة الفقد، وتأتي التعزية في أقوال دعائية أو حكمية، ففي الدعاء نقرأ صيغا مكرورة مثل الدعاء بالرحمة والمغفرة والسقيا للقبر وهذا المعنى الأخير يتوسعون فيه فيصفون السحاب وغزارة المطر دلالة على البركة . وفي الأقوال الحكمية تظهر عبقرية

---

(١) ديوان جرير، ٨٦٤.

(٢) ديوان جرير، ٨٦٤.

(٣) ديوان جرير، ٨٦٤.

(٤) انظر : ابن منظور، : ١٩٦/٩ .

الشاعر في ختم لوحته الحزينة بالتسليم بأمر الله في جمل حكمية تلخص حال الإنسان وحتمية النهاية لكل الأحياء .

وفي قصائد جرير نجد مساحات مهمة لأقوال العزاء، فهو يدعو للميت بالصلاة عليه وبالسقيا لقبره، يقول :

صلى الإله عليك من ذي حفرة خلت الديار له فهن قفار
وسقاك من نوء الثريا عارض تنهلّ منه ديمة مدرار[1]

ويدعو لقبر زوجته بالسقيا في أكثر من موضع ويطنب في وصف السحاب المتراكب الذي يريده لها، يقول :

فسقى صدى جدث ببرقة ضاحك هزم أجش وديمة مدرار
هزم أجش إذا استحار ببلدة فكأنما بجوائها الأنهار
متراكب زجل يضيء وميضه كالبلق تحت بطونها الأمهار[2]

ويقول في موضع آخر من القصيدة :

فجزاك ربك في عشيرك نظرة وسقى صداك مجلل مدرار[3]

ويدعو لها بالصلاة والرحمة، يقول :

صلى الملائكة الذين تخيروا والصالحون عليك والأبرار
وعليك من صلوات ربك كلما نصب الحجيج ملبدين وغاروا[4]

والدعاء للميت في ظاهره التركيبي صيغ طلبية، لكنه في مقاصده التماس وسؤال؛ لأن المطلوب أعلى قدرا ومكانة من الطالب، فهذه الأقوال الدعائية هي من باب الأمريات أو التوجيهيات ومقصدها الالتماس والسؤال من الله عز وجل.

---

(١) ديوان جرير، ٧١٩.
(٢) ديوان جرير، ٨٦٣.
(٣) ديوان جرير، ٨٦٢.
(٤) ديوان جرير، ٨٦٤.

وقد يكون الطلب أو الالتماس موجها إلى الناس بأن يشاركوه الدعاء والصلاة على فقيده وأن يدعوا للميت بالرحمة والمغفرة. وقد تفصح هذه الأقوال عن فعل كلامي آخر؛ فقد نفهم فعل البوح مثل الأنواع السابقة أيضا، فهو بهذه الأدعية يبوح بحزنه ويفصح عن ألمه .

وتظهر الأقوال الحكمية في كثير من مرثيات جرير، وتمثّل خلاصة تجارب الشاعر ومواعظه، وهي أبيات سائرة ومواضع شعرية شهيرة تجد القبول والاحتفاء، فلا أبلغ من حكمة المحزون الموتور في أحبائه وذويه، وهي غالبا تتعلق بموضوعات الفراق وحتمية الموت على جميع الأحياء وعدم الانغرار بملذات الحياة، يقول جرير في رثاء الوليد بن عبد الملك تأكيدا لقضاء الله عز وجل الذي لا يرده أحد، يقول :

كانوا شهودا فلم يدفع منيته عبد العزيز ولا روح ولا عمر(١)

فلا أحد يستطيع ردّ الموت عن الخليفة وهو أقوى البشر وهذا قول حكمي يعزّي النفس المكلومة ويسليها عن حزنها .

ويؤكّد جرير هذا المعني الحكمي في مرثية المرار بن عبد الرحمن حين يقول:

راح الرفاق ولم يرح مرّار وأقام بعد الظاعنين وساروا
لا يبعدن وكل حي هالك ولكل مصرع هالك مقدارُ(٢)

فكل الأحياء مصيرهم الموت وهو قدر الله المحتوم، ويقول أيضا في مقام ختام رثائه لزوجه خالدة :

كان الخليط هم الخليط فأصبحوا متبدلين وبالديار ديار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار(٣)

(١) ديوان جرير، ٢٤٢.
(٢) ديوان جرير، ٧١٩.
(٣) ديوان جرير، ٨٦٤.

فهو يعجب من حال الإنسان في صحبته الطويلة مع أحبائه وكيف يبدل الموت أحوالهم ويفرّق جمعهم إنها حال تدعو إلى التفكر والتأمل في ضعف الإنسان وحتمية مفارقته لهذه الدنيا مهما فعل في تقوية أسبابه بهذه الحياة .

ومقاصد هذه الأقوال تنصرف بداية للإخبار بحال هذه الدنيا وهو يخاطب فيها المتلقي الغافل عن حقيقتها المنشغل بحياته وتفاصيلها عن الحقيقة، فكأنه يقول : أنا بهذه الأقوال وهذه الحكم أخبر بحقيقة الحياة ومآلاتها .

كما نفهم منها فعلا كلاميا آخر هو البوح بالحزن والأسى، فهو يبوح بحزنه ويظهر أساه وألمه من هذه الحياة الزائلة، وكأنه يقول : أنا بهذه الأقوال أبوح بحزني وألمي من حقيقة هذه الحياة .

وقد نفهم فعلا ثالثا هو الأمريات ؛ فهو بكشفه عن حقيقة هذه الحياة وكذب وعودها يأمر الآخرين بعدم الاطمئنان إلى ملذات الحياة والاستعداد دائما للحظة الفراق والوداع، فكأنه يقول : أنا بهذه الأقوال آمركم بعدم الانخداع لملذات الحياة وزخرف ألوانها .

**

المبحث الثاني

التقنيات الحجاجية

تحتفي الدراسات الحجاجية بموضوع التقنيات الحجاجية، وهي أشكال مجردة مأخوذة من المواضع الحجاجية ؛ فهي حجج مجردة بالمعنى الواسع لكلمة (حجة)، أو هي معان حجاجية يعتمدها المتكلم الصانع لخطابه بقصد الاستدلال بها على أطروحته أو دحض الأطروحة المضادة(١).

وقصيدة الرثاء خطاب موجّه نحو مخاطب أو مخاطبين بقصد الإقناع والتأثير وهو يتّكئ – شأن الخطابات الأخرى – على تقنيات يوظّفها ويستثمر فعاليتها ؛ لإيقاع التصديق والقبول . وأهم المدارس الحجاجية التي حصرت هذه الأشكال وأعادت بناء أنماطها واستنتاج أشكالها اتجاه " بيرلمان وتيتكاه "، وقد جعلا الحجج قائمة على زوج (الوصل والفصل) ولكل منهما طرائق وأشكال، وما يعنينا هنا هو (طرائق الانفصال) وقد عرّفاها في مصنفهما (الخطابة الجديدة) بأنها هي " التي تقرب بين العناصر المتباينة بدءا وفي الأصل، وتتيح إقامة ضرب من التضامن بينه لغاية هيكلتها أي إبرازها في هيكل أو بنية واضحة أو لغاية تقديم أحد هذه العناصر بواسطة آخر تقويما إيجابيا أو سلبيا "(٢).

وقد جاءت طرائق الوصل عندهما في أربع مجموعات، هي : الحجج شبه المنطقية والحجج المؤسسة على بينية الواقع والحجج المؤسسة لبنية الواقع وحجج

---

(١) انظر : عادل الغامدي، الحجاج في قصص الأمثال القديمة، دار كنوز المعرفة، عمّان، ط١، ٢٠١٦م، ١٣٤.

(٢) عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، مسكيلياني للنشر، تونس، ط١، ٢٠١١م، ٤١.

القيم[١]، وتحت كل مجموعة عدد من التقنيات الحجاجية، وقد اخترت أظهر هذه الحجج وأكثرها وضوحا في مراثي جرير، وهي :

١- **حجة السلطة** : هي مجموعة من الحجج التي تعتمد على استدعاء نفوذ شخص أو مجموعة، وهو حجاج يستمد فعاليته من قائل القول ويتوسل بقوته ونفوذه للإقناع بما يقوله ؛ إنه حجاج موجز وفعّال يستدرج اعتراف المخاطب بسلطة معينة في قبول الأطروحة وهي لأجل ذلك لا تحاول إنشاء محاورة مع المخاطب بقدر دفعه نحو الإذعان بسلطة القائل لقبول قوله والاعتراف بنفوذه[٢].

وتختلف السلطة في هذه الحجج فقد تكون (الإجماع) أو (الرأي العام) أو (العلماء) أو (الفلاسفة) أو (الأنبياء)، وقد يعمد في الحجاج بالسلطة إلى ذكر أشخاص معينين بأسمائهم على أن تكون سلطة هؤلاء معترفا بها من قبل جمهور السامعين[٣].

وفي مرثيات جرير نقرأ استخدامات لهذه الحجة، فهو يتوسل بسلطة نافذة في مجموعة من أقواله لتغذية رثائه بالوجاهة الإقناعية اللازمة لاستمالة تلقي المخاطب وقبوله، فمن ذلك تأبين المتوفى بذكر خيريته وتأكيدها من خلال ربط فضله برحمة الله عز وجل وهي أعظم سلطة، فالذي يصلي عليه هو الله تقدّست أسماؤه، يقول في رثاء المرار بن عبد الرحمن :

صلى الإله عليك من ذي حفرة خلت الديار له فهن قفار[٤]

إن هذا القول وإن كان دعاء إلا أنه يضمر استدعاء لسلطة الله عز وجل وعظيم رحمته ؛ فهو المانح المعتبر للرحمة والمغفرة، ولذلك يحرص الراثي على التوسل بهذه السلطة النافذة فيستدعيها في مواطن كثيرة من مرثياته .

---

(١) انظر : عبد الله صولة، ٥٣ .

(٢) انظر : عادل الغامدي، ١٨٧.

(٣) انظر : عبد الله صولة، ٥٣.

(٤) ديوان جرير، ٧١٩.

وفي مواطن أخرى يستدعي سلطة الشعائر الدينية ؛ لتأكيد خيرية المتوفى والترحم عليه، فهو من خير الناس وأنقاهم، يقول في رثاء الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

تنعي النعاة أمير المؤمنين لنا يا خير من حج بيت الله واعتمرا(١)

إن إيراد شعائر الحج وبيت الله والعمرة استدعاء لفعالية هذه الشعائر المرتبطة في ذهن المخاطب بأفضلية دينية، فهي دلالات تستند على مكانة هذه الشعائر وفضل من يقوم بها .

وفي قصائد أخرى نقرأ استدعاء لأشكال أخرى من السلطة، ففي رثائه لزوجه (خالدة) يقول :

صلى الملائكة الذين تخيروا والصالحون عليك والأبرار
وعليك من صوات ربك كلما نصب الحجيج ملبدين وغاروا(٢)

فهو يتوسل بسلطة هذه المجموعات الخيرة لإضفاء الفضل على المرثي، فالذين يصلون هم الملائكة والأبرار والصالحون، واستدعاء ذكرهم استدعاء لتأثيرهم في قبول قوله ومشاركته في الترحم على زوجه وإقرار الفضل لها . وهو يلح على ذكر الحجيج في موطن آخر من القصيدة نفسها، يقول :

وعليك من صلوات ربك كلما نصب الحجيج ملبدين وغاروا(٣)

ولا ريب أن الحجيج يمثلون شعيرة الله الأعظم، فمعاني الرحمة والمغفرة اللازمة في هذا الخطاب ستتصل برثاء الفقيدة فيتأثر لها ويترحم على فقدها، وهذا مقصد خطابي تقوم عليه قصيدة الرثاء .

---

(١)ديوان جرير، ٧٣٦.

(٢)ديوان جرير، ٨٦٤.

(٣) ديوان جرير، ٨٦٤.

ونقرأ في مواطن أخرى أنواعا أخرى من السلطة، فالشاعر يستخدم سلطة (الكثير) و (الناس) في التأبين لإقناعنا بمكانة المرثي وفضله، فمن ذلك قوله في رثاء عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك :

وأظلمت البلاد عليه حزنا وقلت أفارق القمر المنير

وكل بني الوليد أسر حزنا وكل القوم محتسبا صبور[١]

فالاتكاء هنا على (الكثير) في قوله (البلاد) و (كل بني الوليد) . إذ إن حكم الكثير والجميع يمتلك أسباب النفوذ والسلطة التي تجعله مقبولا ووجيها إلى حد الإقناع، فكأن الشاعر يقول الجميع حزن على موته، وهذه الكثرة تمتلك سلطة يعترف بها المتلقي ويذعن لها .

ونقرا في أبيات أخرى تحديدا لهذه الكثرة واستدعاء لسطلة أخرى هي القبيلة أو المدينة أو الإقليم، ففي رثائه للفرزدق يقول :

لعمري لقد أشجى تميما وهدّها على نكبات الدهر موت الفرزدق[٢]

ويلحّ على هذه الحجة في مواطن أخرى من القصيدة فيقول :

عماد تميم كلها ولسانها وناطقها البذاخ في كل منطق[٣]

إن استدعاء قبيلة تميم استدعاء لسلطة الكثير وهو أيضا توسّل بسلطة القبيلة واستدعاء لنفوذها، فإذا حزنت تميم كلها وإذا كان المتوفى لسان تميم فإنه ولا شك ذو فضل عظيم وفي منزلة عالية .

وهذا الاستخدام يتكرر في مرثيات جرير، فيقول مثلا في رثاء شريك بن الحميرية :

---

(١) ديوان جرير، ٦٩٤.

(٢)ديوان جرير، ٩٣٨.

(٣)ديوان جرير، ٩٣٨.

ستبكي تميم ما تغلغل راكب أبا الصلت زين الركب سمّ الفوارس[١]

ويقول أيضا في رثاء الفرزدق :

فجعنا بحمّال الديات ابن غالب وحامي تميم عرضها والمراجم[٢]

وقد يكون الكثير هذا إقليما أو مدينة، نحو قوله :

بكى أهل العراق وأهل نجد على عبد العزيز ومن يغور[٣]

فبكاء أهل العراق وأهل نجد يستلزم أهمية المتوفى وفضله وعلو مكانته .

٢- حجة التقسيم :

تنتمي هذه الحجة إلى مجموعة من الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية حسب توصيف بيرلمان[٤]، وهي حجج تستمد طاقتها الإقناعية من تشبهها بالقواعد الرياضية الصورية، لكن هذا الشبه يتكيف حسب حاجات المتكلم ومقاصده، ولذلك كانت حججا شبه منطقية، وحجة التقسيم تهدف إلى البرهنة على وجود المجموع بتقوية حضوره من خلال ذكر أقسامه والتصريح بأجزائه[٥]. وفي مرثيات جرير نقرأ هذه الحجة في مواطن مختلفة، نحو قوله في رثاء الوليد بن عبد الملك :

أمسى بنوه وقد حلّت مصيبتهم مثل النجوم هوى من بينها القمرُ

كانوا شهودا فلم يدفع منيته عبدُ العزيز ولا روحُ ولا عُمَرُ[٦]

---

(١)ديوان جرير، ٧٣٢.

(٢)ديوان جرير، ٩٧٦.

(٣) ديوان جرير، ٦٩٤ .

(٤) انظر : عبد الله صولة، ٤٨ . وعادل الغامدي، ١٦٦.

(٥) انظر : عبد الله صولة، ٤٨.

(٦) ديوان جرير، ٢٤٢.

فالشاعر يتحدث عن حزن أبناء الوليد ويصف مصيبتهم ثم يؤكد هذا القول بذكر أبنائه تقوية لهذا الحكم، وفي موطن آخر يرثي عبد العزيز بن الوليد بقوله :

وأظلمت البلاد عليه حزنا وقلت أفارق القمر المنير(١)

فأهل النواحي والمدن والأقاليم بكت هذا الفقيد لعظم مكانته وهو يقدم حجة التقسيم لدعم هذا الحكم وتقويته، فيقول بعد ذلك :

بكى أهل العراق وأهل نجد على عبد العزيز ومن يغور
وأهل الشام قد وجدوا عليه فأحزنهم وزلزلت القصور(٢)

ويكثر في مرثيات جرير صيغ الندب التي تبدأ بـ (من) الاستفهامية للتحسر وإظهار حجم الحزن، فهو يبرز مكانة المتوفى بذكر أفضاله وأعماله وقد يأخذ هذا شكل التقسيم، فالأبيات تبدأ بتقديم حكم مجمل لأفضلية المرثي ثم تشرع في ذكر صفاته ومآثره، فمن ذلك قوله في رثاء عقبة بن عمار :

يا عقب لا عقب لي في البيت أسمعه من للأرامل والأضياف والجار
أم من لباب إذا ما اشتد حاجبه أم من لخصم بعيد الشأو خطّار
أم من يقوم بفاروق إذا اختلفت غياطل الشك من ورد وإصرار
أم للقناة إذا ما عيّ قائلها أم للإعنة يا عقب بن عمّار(٣)

إن الحكم المقدم في البيت الأول بأهمية عقبة وعظم مكانته خاصة للشاعر إلى درجة التحسر الشديد على فقده يتقوى بتفصيل هذه الأهمية وذكر أحوالها وأقسامها في قصد حجاجي يتغيا البرهنة على المجموع وهو خيرية المتوفى وعظم منزلته ؛ فهو الكريم على الأرامل والأضياف والجار وهو المعين على نوائب الدهر

---

(١) ديوان جرير، ٦٩٤.

(٢) ديوان جرير، ٦٩٤.

(٣) ديوان جرير، ٢٤٣.

للمحتاج، وهو الشجاع الذي يقف بجانب الحق وهو الفصيح البليغ على المنابر، ومثل هذا المثال نقرأ قوله في قصيدة أخرى يرثي فيها الفرزدق، يقول :

لقد غادروا في اللحد من كان ينتمي إلى كل نجم في السماء محلق[1]

فهو يقرر حكم هذه المكانة السامقة التي يراها للفرزدق ثم يشرع في ذكر أنواع هذه الفضائل ليؤكد الحكم الأول ويقويه في ذهن المتلقي، يقول :

فمن لذوي الأرحام بعد ابن غالب لجار وعان في السماء موثق
ومن ليتيم بعد موت ابن غالب وأم عيال سابغين ودردق
ومن يطلق الأسرى ومن يحقن الدما يداه ويشفي صدر حران محنق
وكم من دم غال تحمّل ثقله وكان حمولا في وفاء ومصدق
وكم حصن جبار همام وسوقة إذا ما أتى أبوابه لم تغلق[2]

وهي أوصاف تعضّد حكم الخيرية وتقوي فعاليته الإقناعية فكأنها مثل الأدلة التي يقدمها المتكلم لإثبات قوله والإقناع به .

٣- الحجج التي تستدعي القيم :

يستعين الشاعر في مواضع مختلفة بحجج ذات سلطة ونفوذ تنشدّ إلى المشترك المجمع عليه في ثقافة المتلقي وثوابته الأخلاقية[3]وخاصة القيم الأخلاقية التي تحوز الموافقة والرضا وهي أساس صلب لإقامة أي منوال إقناعي[4].

وتتعدد القيم وتتنوع في ثقافات المجتمعات وأنظمتها، فهناك القيم الكونية التي تشترك فيها ثقافات الشعوب وتعتبر مرجعيات إنسانية عامة ؛ نحو قيم الحق

---

(١) ديوان جرير، ٩٣٨ .

(٢) ديوان جرير، ٩٣٨ .

(٣) انظر : عادل الغامدي، ٢٠٦.

(٤) انظر : سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط٢، ٢٠١١م، ٢٧٠.

والخير والجمال، وهناك القيم الأخلاقية كالصدق والشجاعة الكرم، فربط القول بقيمة من هذه القيم يغذّيه بكفاءة إقناعية تمكّنه من استمالة قبول المتلقي والتأثير عليه .

وفي قصائد جرير الرثائية نجد إلحاحا واضحا على القيم الأخلاقية لبناء أقوال تأبينية تثني على المتوفى وتمدح أفعاله وتعلي من شأنه، فهو يستخدم قيمة الكرم الأخلاقية لإقناع المخاطب بخيرية المتوفى في مواطن مختلفة من قصائده الرثائية نحو قوله في رثاء عقبة بن عمّار :

يا عقب لا عقب لي في البيت أسمعه مـــن للأرامـــل والأضـــياف والجـــار(١)

فمدحه يتأسس على فضيلة الكرم المتواضع على خيريتها، ومثل ذلك قوله في الفرزدق :

فمن لذوي الأرحام بعد ابن غالب لجـــار وعـــان فـــي الـــسماء موثـــق

ومن ليتيم بعد موت ابن غالب وأم عيـــــــال ســــــــابغين ودردق

ومن يطلق الأسرى ومن يحقن الدما يـــداه ويـــشفي صـــدر حـــران محنـــق(٢)

ومن هذا الباب أيضا قوله في رثاء المرار بن عبد الرحمن :

للدافنين أخا المكارم والندى لله مـــا ضـــمنت بـــه الأحجـــار(٣)

وقلما تقرأ تأبينا يخلو من خلق الكرم ؛ فهو من الفضائل التي يتفق الناس على قبولها والإعلاء من شأن أصحابها .

ونقرأ فضائل أخرى في رثائيات جرير، نحو الشجاعة في مثل قوله :

أمن لباب إذا ما اشتد حاجبه أم مـــن لخـــصم بعيـــد الـــشأو خطـــار

أم من يقوم بفاروق إذا اختلفت غياطـــل الـــشك مـــن ورد وإصـــدار(٤)

---

(١) ديوان جرير، ٤٤٣.
(٢) ديوان جرير، ٩٣٨.
(٣) ديوان جرير، ٧١٩.
(٤)ديوان جرير، ٤٤٣.

وفي مثل قوله أيضا في رثاء الصمة بن عبد الله القشيري :

لنعم الفتى والخيل تنحط في القنا نعـــي ابـــن زيـــاد للعقيلـــي طـــارق

فيا صمّ من للخيل تنحط في القنا ويـــا صـــمّ مـــن للمنـــديات الطـــوارق

وقد كان مقداما على حارة الوغى ولوجـــا إذا مـــا هيـــب بـــاب الـــسرداق

رأيت جياد الخيل بعدك عرّيت وحلّـــت رحـــال الـــيعملات المحـــانق[1]

وهي مقطوعة رثائية تلحّ على فضيلة واحدة هي الشجاعة لتجعلها دليلا وحجة على فضل المتوفى وعلو مكانته . ونقرأ قيما أخلاقية أخرى، نحو الصبر والأمانة في مثل قوله في رثاء عمر بن عبد العزيز :

حملت أمرا عظيما فاصطبرت له وقمـــت فيـــه بـــأمر الله يـــا عمـــرا[2]

ومثل فضيلة حسن الجوار والوفاء في قوله في رثاء المرار بن عبد الرحمن :

كان الخيار سوى أبيه وعمه ولكـــــل قـــــوم ســـــادة وخيـــــارُ

لا يسلمون لدى الحوادث جارهم وهـــم لمـــن خـــشى الحـــوادث جـــارُ[3]

ونحو التواضع وحسن الخلق في مثل قوله في رثاء زوجه خالدة :

عمرتْ مكرمة المساك وفارقت مـــا مـــسها صـــلف ولا إقتـــارُ[4]

ومثل فضيلة العفة في مثل قوله في زوجه :

والريح طيبة إذا استقبلتها والعـــرض لا دنـــس ولا خـــوّارُ[5]

وترد قيم أخرى في رثاء جرير غير الأخلاق، نحو قيمة الجمال في مثل قوله في رثاء زوجه :

---

(١) ديوان جرير، ٨٠١.

(٢) ديوان جرير، ٧٣٦ .

(٣) ديوان جرير، ٧١٩.

(٤) ديوان جرير، ٨٦٢.

(٥) ديوان جرير، ٨٣٦.

ولقد أراك كسيت أجمل منظر ومع الجمال سكينة ووقار[١]

وفي القصيدة نفسها، يقول:

وإذا سريت رأيت نارك نورت وجها أغر يزينه الأسفارُ[٢]

وفي الجمال أيضا يقول في رثاء المرار بن عبد الرحمن :

لما غدوا فينا بأروع ماجد كالبدر يستسقى به الأمطار[٣]

٤- تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة :

وهي من الحجج المؤسسة لبنية الواقع التي تعتمد على الاتصال مع عناصر الواقع محاولة تأسيس واقع خاص بها، فالمتكلم بهذه الحجج يحاول إنشاء صور واقعية جديدة يوجه بها ما يريده لإقناع مخاطبه والتأثير عليه[٤]، وأبرز حجج هذا المسار (تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة)، وهي حجة يحاول المتكلم من خلالها توسيع مثال خاص وتعميمه حتى يغدو قاعدة عامة، ومثل ذلك نجده في اتكاء الشاعر على حادثة الموت للحديث عن حقيقة مفارقة الإنسان لهذه الحياة، في مثل قوله في رثاء المرار بن عبد الرحمن بن أبي بكرة :

راح الرفاق ولم يرح مرّار وأقام بعد الظاعنين وساروا

لا يبعدن وكل حي هالك ولكل مصرع هالك مقدار[٥]

فهو ينطلق من موت المرار وهي حالة خاصة ليربطها بحقيقة الإنسان الكونية وهي الموت ويجعلها قاعدة عامة يقوّي بها حديثه بعد ذلك، ومثل ذلك نقرؤه في رثاء زوجه خالدة يقول :

---

(١) ديوان جرير، ٨٣٦.

(٢) ديوان جرير، ٨٦٣.

(٣) ديوان جرير، ٧١٩.

(٤) انظر : عادل الغامدي، ١٩٤.

(٥) ديوان جرير، ٧١٩.

كان الخليط هم الخليط فأصبحوا متبـــــدلين وبالـــــديار ديـــــار

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليـــــل يكـــــرّ علـــــيهم ونهـــــار[1]

فالفراق بينه وبين زوجه يتصل بحقيقة عامة وسنة كونية ألا وهي الموت فلا صحبة دائمة ولا علاقة بدون انقطاع فلكل شيء نهاية . إن وصل هذه الأحداث الخاصة بهذه الحقائق الكونية جهد إقناعي وكفاءة حجاجية يستخدمها المتكلم لإيصال رسالته بأكثر الطرق إقناعا .

٥- الاستدلال بواسطة التمثيل :

يستخدم المتكلم أيضا هذه الحجة لإحداث الإقناع لدى المخاطب، وذلك بالمرور من علاقة التمثيل إلى واقع جديد يؤسسه ويفرضه ؛ لإثبات وجهة نظره أو تدعيم قوله، فهو استدلال يتأسس على تشابه علاقة بين بنى متشابهة من عوالم مختلفة، إذ إنه استدراج للمخاطب لتوريطه في إثبات نتيجة مقررة سلفا باستثارة مخيلته واستدعاء خبراته وذلك أدعى للاقتناع[2].

فمن ذلك ما جاءت به أمثلة مختلفة من قصائد جرير الرثائية، ففي رثائه للوليد بن عبد الملك، يقول متحدثا عن أبناء المتوفى :

أمسى بنوه وقد جلّت مصيبتهم مثل النجوم هوى من بينها القمر[3]

فالشاعر المتكلم هنا يستخدم التداخل بين أطراف هذه العلاقة ليقيم حجته ويعبر من خلالها لواقع جديد، فعلاقة الأبناء بالمصيبة بسبب ذهاب أبيهم تماثل وتشابه علاقة النجوم بذهاب القمر بينها وهو أجلّها وأكثرها ضياء، وهذا التداخل بين هذه الأطراف يحمل تفاعلا بين العلاقتين تأثرا وتأثيرا، والمعنى المقصود يتحدد داخل هذه العلاقة وليس خارجها، فقد فهمنا المكانة العالية للخليفة بين

---

(١) ديوان جرير، ٨٦٤.

(٢) انظر : عبد الله صولة، ٥٦ . وعادل الغامدي، ١٩٨.

(٣) ديوان جرير، ٢٤٢.

أبنائه وكيف غدوا بعده مثل النجوم الضئيلة والباهتة إذا قورنت بضياء المر ومكانته في السماء .

ويقول جرير في موضع آخر يرثي ابنه سوادة :

فارقتني حين كف الدهر من بصري وحين صرت كعظم الرمة البالي[١]

فهو يشبه حاله وقد دفن ابنه سوادة كحال العظم الرميم البالي المكسور[٢]. إن التشبيه هنا يمكن الشاعر من الاستدلال بعلاقة أخرى لتؤسس له واقعا جديدا، فالعظم المكسور الذي أصابه البلى أصبح واهنا ضعيفا كحاله بعد أن فارقه ابنه، وهو واقع يمكنه من بناء علاقة جديدة فإن إثبات الوهن للعظم المكسور أيسر في ذهن المخاطب وأكثر قبولا، وربطه بحاله وعلاقته مع مصيبة ابنه يمكّن المعنى من الانتقال بين هذين الطرفين ليكتسب فعالية إقناعية .

ونقرأ مثل ذلك في موطن آخر يرثي عبد العزيز بن الوليد :

وأظلمت البلاد عليه حزنا وقلت أفارق القمر المنير[٣]

فالمتوفى ذو مكانة عالية فذهابه يحزن أهل البلاد مثل ذهاب القمر واختفاؤه الذي يسبب الظلام والعتمة، إن تلمس المعنى المراد وهو تأبين المتوفى بمدحه بالمكانة العالية يغدو أكثر وضوحا وفهما مع ربط هاتين العلاقتين برباط التشبيه، وفي شاهد آخر يرثي زوجه خالدة ويدعو لها بالمطر العميم، يقول :

فسقى صدى جدث ببرقة ضاحك هزم أجش وديمة مدرار
هزم أجش إذا استحار ببلدة فكأنما بجوائها الأنهار
متراكب زجل يضيء وميضه كالبلق تحت بطونها الأمهار[٤]

---

(١) ديوان جرير، ٥٨٤.

(٢) انظر : ابن منظور، ٣٢٣/٥ .

(٣) ديوان جرير، ٦٩٤.

(٤) ديوان جرير، ٨٦٣.

فالشاعر يدعو لزوجه بالمطر العميم الذي يجيء من السحاب المتراكب بعضه فوق بعض وقد اختلفت ألوانه بين السواد والبياض والبرق يضيء جوانبه، هذه اللوحة اللونية يشبهها بمجموعة الخيل . إن الإلحاح على تشييد هذه الصورة البصرية بكل تفاصيلها وألوانها الحية يوصل إلينا المعنى المقصود بطاقة إقناعية مختلفة ومكثفة ؛ فالسحاب المتراكب كناية عن المطر الشديد الذي يصيب قبر زوجه وهو دلالة أيضا على الرحمة والمغفرة التي تغشاها في موتها، فليس هناك أثمن من المطر العميم في صحراء الشاعر العربي، إن فهم هذه الصورة يتطلب العبور إلى علاقة جديدة وهذا ما قدمه الشاعر من خلال هذا التمثيل الذي يربط اللوحتين برباط التشبيه، ومأتى الحجاج هنا يكمن في شد المخاطب لهذا الواقع واستمالة قبوله، من خلال استدراجه للتسليم بمقدماته .

وفي القصيدة نفسها نجد تشبيها آخر حين يصف منزل زوجه ومرابعها وقد اعتورها النسيان وهو يعيد الذكرى بكل تفاصيلها، يقول :

وكأن منزلة لها بجلال وحي الزبور تجدّه الأحبار[1]

إن ذلك الصراع الذي يضطرم بداخل الشاعر بين الذكرى والنسيان يتجلى في معنى القلق والحزن الشديد وهو ما يجعل الشارع يشدّ هذا الفهم إلى علاقة جديدة يؤسسها ويعبر من خلالها إلى ما يريد إقناعنا به، وهذا الواقع الجديد هو كتاب (الزبور) الذي تجدده الأحبار بإعادة كتابته أو حفظه حتى لا ينسى وتذهب كلماته طي النسيان . إن التمثيل هنا يغدو مثل الجسر الرابط بين واقعين مختلفين ؛ واقع منزل زوجه وقد طواه النسيان وما يحس به تجاه هذا النسيان، وواقع جديد يؤسسه وهو واقع كتاب الزبور الذي تعيد الأحبار كتابته وحفظه، والشاعر هنا يتنقل بين هاتين العلاقتين في ممارسة حجاجية تغذي خطابه بطاقة إقناعية.

(١) ديوان جرير، ٨٦٤.

المبحث الثالث

الإشاريات

تحتل الإشاريات مساحة مهمة في الدرس التداولي وهي من المكونات اللسانية التي تعيد بناء مرجعية الخطاب حسب مقاصد المتكلم وهي لأجل ذلك من العناصر المهمة في مقاربة الخطاب، وتعرّف الإشاريات (Deixis) بأنها "عبارات تحيل على مرجع يجرى التعرف عليه حتما بواسطة المحيط الزماني / المكاني؛ لتواردها، وتتمثل خصوصية المعنى القرائني في إعطاء المرجع بواسطة هذا السياق "[١]. أو هي " صيغ لغوية تمكّن المستمع أو القارئ من تحديد شيء ما "[٢]. وهي عناصر مبثوثة في التراكيب اللغوية ويُدرس توصيفها وبناؤها ضمن مشاغل علم النحو، لكن دلالاتها المتغيرة بتغيّر موقع المتلفظ بها وحاله أصبحت موضوعا تداوليًّا غنيا بالملاحظة.

وهي أنواع مختلفة تشمل ضمائر المتكلم والمخاطب والوحدات الدالة على الزمن (الآن وغدا وأمس إلخ)، والوحدات الدالة على المكان (هنا وهناك)، والأزمنة الفعلية، وبعضهم يطلق عليها الألفاظ المبهمة التي تفتقر إلى " الاستقلال الإحالي " ولا تستطيع تحديد مرجعها بمفردها[٣].

وقد قسمها الدارسون إلى : إشاريات شخصية وإشاريات زمانية وإشاريات مكانية، وزاد بعضهم: إشاريات اجتماعية وإشاريات خطابية .

---

(١) باتريك شارودو – دومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمّادي صمود، دار سيناترا، تونس، دط، ٢٠٠٨، ١٥٥

(٢) جورج يول، التداولية، ترجمة : قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠١٠م، ٣٩ .

(٣) انظر : جاك موشلر – آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة : عز الدين مجذوب وآخرون، دار سيناترا، تونس، دط، ٢٠١٠م، ١١٠ .

وسأقتصر هنا على الإشاريات الشخصية التي تدل على ذات المتكلم أو المخاطب أو الغائب وهي تعيد بناء مرجعياتها حسب تموضع المتكلم وما يتجه نحوه من مقاصد ودلالات، إذ إن الإشارة إلى الشخص المعين أو الإحالة عليه تصنع وجوده وتؤطِّر صورته، وهو مسار يستخدمه المتكلم صانع الخطاب بكفاءة تداولية تغذّي خطابه بشحنات دلالية مكثفة .

وإذا حاولنا الاقتراب من مقاصد جرير في رثائياته لتعقب الإحالات الإشارية المبثوثة في قصائده وجدنا مرجعيتين بارزتين، هما :

أولا : ذات المتكلم .

وفيها إحالات مختلفة ومتنوعة يعبّر الشاعر من خلالها عن ذاته ويعيد بنائها وتشكيل ملامحها حسب أطروحة الخطاب وجهة المعنى التي يقصدها وهي هنا مقاصد متصلة بالرثاء والحزن والعزاء . وقد حاولت إجمالها تحت العنوانات الآتية :

١- الذات الحزينة الجزعة :

تعيد الإشاريات هنا بناء مرجعية نفهم منها ذاتا حزينة جزعة لا تكاد تسلو عن حزنها وألمها، فهو الحزن المتصل والكبير الذي يصل حدّ الفجيعة والمصيبة العظيمة المطبقة على النفس، فهو يشير إلى نفسه بضمائر مختلفة ؛ ليظهر لنا هذا الألم، وهي ذات تكاد تكون طاغية الحضور في كثير من رثائيات جرير، يقول في رثاء ابنه سوادة الذي هلك بالشام :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم مـــن للعـــرين إذا فارقـــت أشـــبالي
لكن سوادة يجلو مقلتي لحمٌ بـاز يـصرصر فـوق المرقـب العـالي[1]

(١) ديوان جرير، ٥٨٤.

فالضمائر هنا تشير إلى ذات الشاعر، لكنها ذات حزينة منكسرة، فالآخرون المشار إليهم بقوله : (قالوا) يعزونه ويحاولون تسليته وهم كثر بدلالة عدم التعيين، لكنه يتذكر مصيبة الفقد فيعلل حزنه ويراه نتيجة طبيعية لهذه المصيبة .

ويقول في رثاء المرار بن عبد الرحمن بن أبي بكرة :

وأقول من جزع وقد فتنا به ودموع عيني في الرداء غزار
للدافنين أخا المكارم والندى لله ما ضمنت به الأحجار[1]

فالذات الجزعة الحزينة تظهر بشكل واضح وجليّ في إشارة لشاعر لنفسه، فهو جزع لا يكاد يهدأ وألم متصل . وفي المسار نفسه يرى حزنه عظيما لدرجة أنه يمنعه من النوم، يقول :

فبتنا لا نقرّ بطعم نوم ولا ليل نكابده قصير[2]

فالإشارة هنا تحيلنا أيضا إلى ذات حزينة لا تكاد تسلو عن أحزانها .

٢- الذات الباكية :

ويتصل البكاء بالحزن، فهو مظهر من مظاهره، ويشير الشاعر في مواطن مختلفة إلى هذه الذات الباكية أو إلى فعل البكاء الذي نفهم منه صورة هذه الذات، يقول في رثاء زوجه (خالدة) :

لولا الحياء لهاجني استعبارُ ولزرت قبرك والحبيب يزارُ
فجزاك ربك في عشيرك نظرة وسقى صداك مجلل مدرارُ
ولهت قلبي إذ علتني كبرة وذوو التمائم من بنيك صغارُ[3]

---

(١) ديوان جرير، ٧١٩.

(٢) ديوان جرير، ٦٩٤.

(٣) ديوان جرير، ٨٦٢.

ويقول أيضا في رثاء الفرزدق :

بكيناك حدثان الفراق وإنما بكينـــاك إذ نابـــت أمـــور العظـــائم[1]

فالإشاريات هنا تقودنا إلى ذات باكية ضعيفة تصرّح بفعل البكاء وتراه شكلا تعبيريا للرثاء .

٣- الذات الضعيفة :

وهي الذات الأكثر بروزا ووضوحا في قصائد جرير الرثائية، وهي تختلط بالحزن والبكاء، لكن دلالة الضعف هنا تغدو أكثر تجليا، إن الإشاريات هنا تحيلنا إلى متكلم يشكو ضعفه وقلة حيلته ويعلن انكساره وحاجته، وهو يشكو الضعف لأسباب مختلفة ؛ فتارة يشكو كبر سنه وقلة حيلته وتارة أخرى يشكو ضعف بصره وثالثة يشكو وحدته وذهاب عضيده وسنده، فمن ذلك قوله في رثاء ابنه :

فارقتني حين كفّ الدهر من بصري وحـــين صـــرت كعظـــم الرمـــة البـــالي

إن الثواءَ بذي الزيتون فاحتسبي قد أسرع اليوم في عقلي وفي حالي[2]

٤- الذات المتذكرة :

تقودنا الإشاريات أيضا إلى ذات تلحّ على التذكر وتظهر أفعاله وتستخدم ملفوظاته، وهي ذات تتعلق بالماضي السعيد بالنسبة للشاعر قبل حلول مصيبة الفقد والفراق فهي تلح على أفعال الماضي، وتقودنا إلى متكلم يستدعي الزمن الفائت ويتعلق بها عاطفيا، يقول في تأبين ابنه سوادة :

قد كنت أعرفه مني إذا غلقت رهـن الجيـاد ومـدّ الغايـة الغـالي[3]

فهو يشير إلى ذات متعلقة بالزمن الماضي تتذكر تلك الأيام السعيدة قبل وقوع مصيبة الموت والفراق، ومثل ذلك قوله في رثاء الصمة بن عبد الله القشيري:

---

(١) ديوان جرير، ٩٧٦.
(٢) ديوان جرير، ٥٨٤.
(٣) ديوان جرير، ٥٨٤.

وقد كان مقداما على حارة الوغى ولوجا إذا ما هيب باب السرادق[١]

وفي المسار نفسه أيضا نقرأ أبياتا من رثائه في زوجه خالدة، يقول :

ولقد أراك كسيت أجمل منظر ومع الجمال سكينة ووقار[٢]

وفيها أيضا :

وإذا سريت رأيت نارك نورت وجها أغر يزينه الأسفار[٣]

وهو يتذكر ذاته ويشير إليها بالمقارنة مع ذاته الحالية الحزينة المتعبة فتغدو المفارقة شديدة التباين بين ذات فرحة في الزمن الماضي مسرورة بقربها من المحبوب وهو (الزوجة) هنا، إذ يراها ماثلة بوجهها الأغر الجميل .

ثانيا : ذات المخاطب :

تظهر لنا في إشاريات مراثي جرير مساحات مهمة للحديث عن المرثي والإشارة إليه، وهي تصنع بذلك ذاتا مخصوصة ومرجعية مقصودة يريدها المتكلم الصانع لخطابه قصيدة الرثاء، فما الأبعاد التداولية التي نستطيع فهمها في هذه الإحالات ؟ لعل أهمّ الأبعاد التداولية وضوحا ما يتصل بثنائية الحضور والغياب، فالشاعر يخاطب المرثي في أحوال خطاب الحاضر ويتحدث عنه غائبا في أحوال أخرى.

١- **المرثي الحاضر** : تخبرنا الإشاريات بمخاطب حاضر ماثل أمام الشاعر، فهو يستخدم ضمائر الخطاب الدالة على هذا الحضور، واقرأ قوله في رثاء ابنه سوادة، يقول :

فارقتني حين كفّ الدهر من بصري وحين صرت كعظم الرمة البالي[٤]

---

(١) ديوان جرير، ٨٠١.

(٢) ديوان جرير، ٨٦٤.

(٣) ديوان جرير، ٨٦٤.

(٤) ديوان جرير، ٥٨٤.

فهو هنا يعاتب ابنه المتوفى عتاب المحزون المتألم شاكيا ضعفه وقلة حيلته، إن الإشاريات هنا تعيد بناء المشهد لتجعله مقابلة حضورية بين متخاطبين، فالشاعر يعيد إحياء صورة المتوفى ليخاطبه ويتحدث معه ويعاتبه، وهي دلالة تضمر شدة الحزن والإحساس بالفقد وإلحاح الذكرى على فؤاد الشاعر المكلوم.

ومثل ذلك نقرؤه في قوله في رثاء الصمة بن عبد الله القشيري :

رأيت جياد الخيل بعدك عرّيت وحلّت رحال اليعملات المحانق[1]

فهو مخاطب حاضر يسمع مدح المتكلم فيه، وكأنه لم يذهب ولم يفارق مجالسهم .

ويشير إلى هذه الدلالات أيضا في مناسبات مختلفة من قصيدته في رثاء زوجه، إذ هو يتردد كثيرا بين مخاطبتها حاضرة أمامه أو الحديث عنها بخطاب الغائب، وهذا التردد لانفهم منه إلا حجم إحساسه بمصيبة الفقد وثقل وطأة الأمر عليه، يقول :

لولا الحياء لهاجني استعبارُ ولزرت قبرك والحبيب يزارُ
فجزاك ربك في عشيرك نظرة وسقى صداك مجلل مدرار
ولهت قلبي إذ علتني كبرة وذوو التمائم من بنيك صغار
نعم القرين وكنت علق مضنة وارى بنعف بلية الأحجار[2]

ويقول أيضا :

ولقد أراك كسيت أجمل منظر ومع الجمال سكينة ووقار[3]

إن دلالة الحضور هنا معطى تداولي نفهمه من ضمائر المخاطب التي تلح على الحضور والمواجهة، والحضور هنا يحدث تلك المفارقة مع دلالة الموت التي

---

(١) ديوان جرير، ٨٠١.
(٢) ديوان جرير، ٨٦٢.
(٣) ديوان جرير، ٨٦٣.

تعني الغياب والانقضاء، فالحضور هنا حياة وكأن الشاعر يرفض نسيان زوجه ولا يقبل بذهابها فهي مازالت ندية حاضرة في مخيلته وعقله يخاطبها وهي ماثلة أمامه ينظر إليها ويستنطق صمتها، وهذا المعنى يتعاظم داخله في مواطن مثل وصف جمالها ومنظرها .

٢- **المرثي الغائب** : تقدم لنا الإشاريات أيضا شكلا آخر للمخاطب الذي يتوافق مع مقاصد المتكلم، فهو مخطاب غائب لا يسمع صوت المتكلم، وهذا هو الأصل في خطاب الرثاء ؛إذ المرثي المتحدث عنه غائب غيبة لا يرجع منها أبدا فهو ميت متواري في قبره، إن الإشاريات هنا تخبرنا بالغياب لتشدنا نحو دلالات مقصودة في فهمه وتوجيهه . فمن ذلك دلالة الغياب الحتمي الذي لا عودة بعده، فقد وقع أمر الله وعلى المحزون التسليم به والرضا بقدره، يقول في رثاء الوليد بن عبد الملك :

إن الخليفة قد وارى شمائله غبراء ملحودة في جولها زور[١]

ويقول عن أبنائه :

كانوا شهودا فلم يدفع منيته عبد العزيز ولا روح ولا عمر[٢]

فالموت قدر مكتوب والمرثي مهما علت مكانته فقد وقع عليه أمر الله الذي لن يعود به وهذه سنة الله التي تسري على كل الأحياء . ويقول في المعنى نفسه في رثاء مرار :

راح الرفاق ولم يرح مرّار وأقام بعد الظاعنين وساروا
لا يبعدن وكل حي هالك ولكل مصرع هالك مقدار[٣]

---

(١) ديوان جرير، ٢٤٢.

(٢) ديوان جرير، ٢٤٢.

(٣) ديوان جرير، ٧١٩.

ومن دلالات الغياب إظهار مكانة الفقيد وحجم أثره بالإشارة إلى غيابه، يقول في رثاء الفرزدق :

لعمري لقد أشجى تميما وهدّها على نكبات الدهر موت الفرزدق
عشية راحوا للفراق بنعشه إلى جدث في هوة الرض معمق[1]

فالميت المشار إلى غيابه كان يحوز تلك المكانة العالية والمؤثرة في الناس، وفي المعنى نفسه يأتي رثاء عبد العزيز بن الوليد :

نعوا عبد العزيز، فقلت هذا جليل الرزء والحدث الكبير
فبتنا لا نقرّ بطعم نوم ولا ليل نكابده قصير
فهدّ الأرض مصرعه فمادت رواسيها ونضبت البحور
وأظلمت البلاد عليه حزنا وقلت أفارق القمر المنير[2]

ويشير أيضا إلى غياب شريك بن الحميرية :

لقد غادروا بالغيض علق مضنة ولم تر عيني مثله (علق) لابس
ستبكي تميم ما تغلغل راكب أبا الصلت زين الركب سم الفوارس[3]

إنه غياب واضح ومؤثر، فالغائب هو أفضل الناس في نظر الشاعر .

وقد تقودنا الإشاريات إلى غياب يقصد به إبراز المفارقة بين الحضور والغياب في ثنائية تشدنا إلى الحياة والموت ؛ لنتأمل حكمة الله ونستشعر هول المصيبة وحجم الخسارة، ، فالميت كان حاضرا حيا بين أحبابه وأهله لينتقل بعدها إلى عالم آخر وغياب مطلق وصمت دائم، والشاعر هنا يتردد بين غياب غيابه وحضوره، يقول في رثاء عقبة :

---

(١) ديوان جرير، ٩٣٨.
(٢) ديوان جرير، ٦٩٤.
(٣) ديوان جرير، ٧٣٢ .

يا عقب لا عقب لي في البيت أسمعه مـــن للأرامـــل والأضـــياف والجـــار

يا عقب لا عقب لي في اليوم أسمعه إلا ثويـــة رمـــس بـــين أحجـــار[1]

فهو هنا يناديه ويشير إلى حضوره إذا النداء يستدعي مناديا سامعا، لكنه يعيد تأكيد غياب صاحبه " لا عقب لي " وكأنه يتذكر موته ورحيله، بل إن الأمر يغدو أكثر إيلاما في الإلحاح على ياء المتكلم " لي " التي تشير إلى تأثره بهذا الغياب وتهدّ كيانه فالراحل جزء أثير منه، فهو الضعيف المنكسر بعد رحيله.

وفي المسار نفسه نقرأ شواهد أخرى تتجه نحو المعنى نفسه، نحو قوله في الصمة القشيري :

فيا صمّ من للخيل تنحط في القنا ويـا صـمّ مـن للمنـديات الطـوارق

وقد كان مقداما على حارة الوغى ولوجـا إذا مـا هيـب بـاب الـسرادق[2]

فالإشاريات هنا تكثّف هذا التردد بين الحضور والغياب لتقودنا إلى استيعاب حكمة هذا الاختلاف السريع والمتباين بين حضور قوي ثم اختفاء وصمت لا حياة بعده، ففي الأبيات نداء للصمة يضمر صورة حية وذكرى ندية للفقيد، ثم ينتقل بعد ذلك في البيت الآخر إلى الحديث عنه بصفة الغائب .

والأمر عينه نراه في رثاء زوجه خالدة وفي مواطن متعددة، نحو قوله :

نعم القرين وكنت علق مضنة وارى بنعـــف بليـــة الأحجـــار

عمرت مكرمة المساك وفارقت مـــا مـــسها صـــلف ولا إقتـــار[3]

فالتردد واضح بين إشاريات تصنع صورة حاضرة للمخاطب وإشاريات أخرى تحيل إلى الغياب والانقضاء ؛ ليصبح الأمر أشبه بصراع داخلي يعاني منه الشاعر بين نسيان الذكرى وتذكّرها، بين التسليم بحقيقة الموت والرضا به والجزع والتشبث بذكرى الفقيدة ومحاورتها .

---

(١) ديوان جرير، ٤٤٣ .
(٢) ديوان جرير، ٨٠١ .
(٣) ديوان جرير، ٨٦٢.

الخاتمـة

فحصت هذه الدراسة قصيدة الرثاء عند جرير من خلال وجهة النظر التداولية وتحديدا من خلال ثلاثة نظريات تداولية ؛ هي الأفعال الكلامية والتقنيات الحجاجية والإشاريات المقامية، وقد خلّف هذا الفحص مجموعة من النتائج المتعلقة بهذه المسارات تحديدا .

فبداية أظهرت نظرية أفعال الكلام مقاصد الأقوال الرثائية وكشفت عن حركتها، فظهر غلبة المقاصد البوحية وما يتصل بها من أفعال كلامية وكانت أغلب هذه الأفعال متعلقة بإظهار الحزن والأسى تارة تجاه الفقيد وتارة ثانية تجاه أبنائه وذوية وتارة ثالثة تجاه نفسه ومدى إحساسه بالضعف والفقد . كما ظهر مجموعة أخرى من الأفعال الكلامية، فقد فهمنا من بعض الأقوال الرثائية فعل الإخبار وذلك حين يؤبّن الفقيد ويثني على فضائله ويخبر عن مكانته، وظهر أيضا فعل الإيقاع المنتمي للإيقاعيات ؛ وهو مقصد متوارٍ ؛ لأنه متصل بأعراف مؤسسة اجتماعية وسلوك اجتماعي متواضع عليه، فما يقوله الشاعر ويتلفظ به في بعض المواطن يعدّ (تعزية) أو (نعي) وهما فعلان اجتماعيان لا تُنجز إلا من خلال التلفظ بأقوال معينة .

وفي المبحث الثاني درسنا التقنيات الحجاجية في هذه الأقوال الرثائية ؛ وظهرت غلبة حجج (السلطة) وحجج (القيم) و حجة (الاستدلال بالتمثيل)، وهي حجج نافذة ذات فعالية إقناعية تستمد وجاهتها من ارتباط هذه الخطابات بمقامات اجتماعية يؤمن المخاطب والمتلقي بكثرة من قواعدها وتقاليدها . وفي المبحث الأخير ؛ فحصنا الإشاريات الشخصية، وظهر لنا أحوالا مرجعية مختلفة لذات الشاعر، وجميعها متصل بالحزن والإحساس بالفقد والضعف، كما فهمنا من إشاريات أخرى ذات المخاطب (المتوفى)، فقد أعادت بناء حضوره وغيابه في ثنائية مقصودة لتقودنا إلى جهة مقصودة من الدلالة، فالحضور يشي بالذكرى والحياة، والغياب يشي بالموت والنسيان والرضى به.

المصادر والمراجع

- الأصفهاني، الأغاني، تحقيق : إحسان عباس وآخرون، دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٨م .
- باتريك شارودو – دومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمّادي صمود، دار سيناترا، تونس، دط، ٢٠٠٨ م .
- جاك موشلر – آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة : عز الدين مجذوب وآخرون، دار سيناترا، تونس، دط، ٢٠١٠م .
- جرير، الديوان بشرح محمد بن حبيب، تحقيق : نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، ط٣، د ت .
- جورج يول، التداولية، ترجمة : قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط٢، ٢٠١١ م.
- شكري المبخوت، نظرية الأعمال اللغوية، مسكلياني للنشر، تونس، ط١، ٢٠٠٨م
- شوقي ضيف، الرثاء، دار المعارف، القاهرة، ط٤، دت .
- طالب الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، مطبوعات جامعة الكويت، ط١، ١٩٩٤م .
- عادل الغامدي، الحجاج في قصص الأمثال القديمة، دار كنوز المعرفة، عمّان، ط١، ٢٠١٦م.
- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، مسكيلياني للنشر، تونس، ط١، ٢٠١١م.
- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥.

- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م .
- النووي، تحرير ألفاظ التنبيه، تحقيق : عبد الغني الدقر، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٨هـ.

**

Bibliography:

- Patrick Charaudeau - Dominique Mengneau, *Dictionary of Discourse Analysis*, translated by Abdelkader Al-Muhairi and Hammadi Samoud, Sinatra House, Tunis, ٢٠٠٨ AD.
- Jacques Mochler - Anne Ripoll, *Encyclopedic Dictionary of Pragmatics*, translated by: Izz El-Din Majzoub and others, Sinatra House, Tunisia, D.D., ٢٠١٠.
- Jarir, *Al-Diwan with the explanation of Muhammad bin Habib*, investigation: Noman Muhammad Amin Taha, Dar Al-Maaref, Cairo, ٣rd edition.
- George Yule, *Pragmatics*, translated by: Qusai Al-Atabi, Arab House of Science, Beirut, ١, ٢٠١٠.
- Samia Al-Daridi, *Al-Hajjaj in Arabic Poetry*, Its Structure and Methods, Modern Book World, Jordan, ٢nd Edition, ٢٠١١.
- Shukri Al-Mabkhout, *Theory of Linguistic Business*, Meskliani Publishing, Tunis, ١st Edition, ٢٠٠٨ AD
- Shawki Deif, *Lamentation*, Dar Al-Maaref, Cairo, ٤th edition.
- Talib Al-Tabtabai, *The Theory of Speech Actions Among Contemporary Philosophers of Language and Arab Rhetoricians*, Kuwait University Press, ١st Edition, ١٩٩٤ AD.
- Adel Al-Ghamdi, *Al-Hajjaj in the Stories of Ancient Proverbs*, Dar Kunouz Al-Maarifa, Amman, ١st Edition, ٢٠١٦.
- Abdullah Soula, *In The Theory of Hajjaj*, Maskiliani Publishing, Tunis, ١st Edition, ٢٠١١ AD.
- Masoud Sahrawi, *The Deliberativeness of the Arab Scholars*, Dar Al-Tali'a, Beirut, ١st Edition, ٢٠٠٥.

- Ibn Manzur, *Lisan al-Arab*, House of Revival of Arab Heritage, Beirut, ٢nd Edition, ١٩٩٧ AD.
- Al-Nawawi, *Editing the Words of Warning*, investigation: Abdul Ghani Al-Daqer, Dar Al-Qalam, Damascus, ١, ١٤٠٨ AH.

* * *